اسم المادة: سورة الغاشية

من سلسلة: تفسير جزء عمّ

لفضيلة الشيخ: د. أحمد عبد المنعم

إنتاج فريق التفريغ بشبكة الطريق إلى الله

اسـم المادة: سورة الغاشية
من سلسلة: تفسير جزء عمّ
لفضيلة الشيخ: د. أحمد عبد المنعم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله –صلى الله عليه وسلم– بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح للأمة، فما ترك خيرًا إلا ودلنا عليه، وما ترك شرًا إلا وحذرنا منه، فصلاة وسلامًا دائمين من رب العالمين على أشرف المرسلين محمد –صلى الله عليه وسلم–.

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ" اللي عمران:١٠٢

أما بعد.. أحبتي في الله

إن الله –عز وجل– لم يخلق الخلق سدى ولم يتركهم عبثًا، ولكن خلقهم لغاية وأرسل إليهم الرسل، وأنزل إليهم الكتب ليذكرهم بهذه الغاية، ليحي من حي عن بينة ويهلك من هلك عن بينة، أنزل الله –عز وجل– لهذه الأمة القرآن الكريم، واصطفى لها خير الرسل محمدًا –صلى الله عليه وسلم–، واصطفى لنا القرآن، فطوبى لهذه الأمة، وحري بأي رجل من هذه الأمة وأي امرئ من هذه الأمة أن يفخر بانتسابه إلى النبي محمد –صلى الله عليه وسلم– باتباعه لسنة النبي –صلى الله عليه وسلم–.

معنا اليوم سورة من كتاب الله –عز وجل–، علنا نتعظ ونعتبر ونعمل بما فيها، فكان صحابة النبي –صلى الله عليه وسلم– يتشوقون لنزول القرآن، فإذا نزلت السورة تعلموها ليطبقوها.

هذه السورة من قصار السور في جزء عمّ الذي يحفظه كثير من الناس.

في سورة الغاشية. يقول ربنا –سبحانه وتعالى–: "هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ * لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ * لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ * أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ * فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ * إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ"

هذه السورة العظيمة التي اصطفى الله –عز وجل– لها واتفق المسلمون على هذا الاسم أن من أسمائها الغاشية، اسم فيه إبهام، يعني ليس اسمها يوم القيامة أو النار، اسمها الغاشية، لذلك اختلف المفسرون ما هو هذا الشيء الذي وُصف بالغاشية؟

أولًا قبل أن نبدأ في وقفات مع هذه السورة تعالوا لنرى موقع هذه السورة في القرآن الكريم. هذه السورة جاءت بعد سورة البروج والطارق والأعلى، فجاءت بعد سورة الأعلى سورة الغاشية.

إن الناظر إلى سورة البروج، وهو يتدبر في هذه السورة العظيمة، ويفاجأ بجهد أهل الباطل لمحاولة إبطال هذا الدين عن طريق تعذيب أهل الإيمان جهارًا نهارًا، فحفروا لهم الأخاديد وأوقدوا فيها النيران وألقوا بالمؤمنين في هذه الأخاديد، وصبر المؤمنون واصطفاهم الله –عز وجل– شهداء، في هذه السورة –سورة البروج– التي تبين لنا الجهد الظاهر لأهل الباطل لمحاولة إبطال هذا الدين.

ثم تأتي سورة الطارق التي تؤكد أن الله –عز وجل– يحفظ هذا الدين، وكذلك قادر على حفظ المؤمنين "وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ * إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ" فالذي قدر على حفظ السماء من استراق السمع من الشياطين، قادر على حفظ كل مؤمن وقادر على حفظ هذا الدين.

وبينت لنا سورة الطارق أن المكر لأهل الباطل لا يقتصر على الجهار النهار، ولكنهم يمكرون بالليل، فقال ربنا في هذه السورة: "إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا" الذي يقرأ سورة البروج وسورة الطارق قد يصاب باليأس، قد يصاب بالإحباط، جهد لأهل الباطل علانية وجهد خفي، يقتلون المؤمنين ويمكرون ويكيدون لأهل الإيمان.

تأتي سورة الأعلى لتطمئن المؤمن أن هذا القرآن محفوظ "سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى"، تأتي سورة الأعلى لتقول لك: إياك أن تسيء الظن بربك الأعلى. نزه اسم الله الأعلى "سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى" فالله –عز وجل– هو الأعلى، أعلى من كل شيء، أعلى من كل مخلوق، سبحانه وتعالى. فجاءت هذه السورة لترتفع بالإنسان، تعتلي بالإنسان، ترفعه فوق شهوات الدنيا، فوق الاستغراق في أحداث الدنيا؛ ليتزكى.

المؤمن مطالب في سورة الأعلى أن يتزكى ويذكر اسم ربه ويصلي.

ما المانع من التزكي؟ ما المانع من الأعمال الصالحة؟ ما المانع؟

قال ربنا في ختام السورة: "بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى"، فجاءت سورة الغاشية لتكلمنا عن هذه الآخرة التي نسيناها، لتحدثنا لماذا يعرض كثير من الناس عن التزكي، لتخبرنا سورة الغاشية: لا بد من سعي مقابل لسعي أهل الباطل، وأن الذي سوف يسعى لنصرة هذا الدين في الدنيا سوف يرضى يوم القيامة "لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ" لأنه عمل لنصرة هذا الدين، لأنه سعى، لأنه بذل.

جاءت سورة الغاشية لتخبرنا لكي لا ننسى، أنسيتم حديث الغاشية، أنسيتم يوم القيامة؟ "هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ" ألم تسمعوا عن يوم القيامة؟ لماذا تركتم التزكي؟ لماذا تركتم الإيمان؟ لماذا تركتم نصرة الدين؟

اعلموا أن لكل إنسانٍ وجهة في الدنيا، إما أن يختار الحق أو يختار الباطل، كل إنسان له وجهة؛ اختيار.

فجاءت سورة الغاشية لتبين لك أنواع الوجوه على حسب اختياراتهم في الدنيا، فمن كانت وجهته إلى الباطل فوجهه يوم القيامة خاشع ذليل، ومن كانت وجهته في الدنيا إلى الحق والسعي والبذل لنصرة الدين "وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ" لذلك جاء التعبير بلفظة "الوجوه" التي تعبر عن الوجهة.

الإنسان لما بيلتفت بوجهه إلى شيء وكأنه اختار هذا الشيء "فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا" كما قال ربنا في سورة الروم:٣٠. "أقم وجهك" أي لا تختار إلا هذا الدين، لا بد أن تصطفي وتختار وتثبت على هذا الدين، فكذلك جاء الوصف بالوجوه "هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ".

ثم تخبرنا السورة أن الناس ينقسمون إلى قسمين. ما هي هذه الغاشية الأول؟

الغاشية شيء عظيم يغطي على الناس، يغشى الناس. فقالوا ما الذي سوف يغطي على الناس؟ هل هي يوم القيامة تغطي على العقول والأذهان ولا يستطيع الإنسان أن يفكر أو أن يفر أو أن يذهب إلى أي مكان، فتغشاه مكاره وأهوال وعظم يوم القيامة؟ أم النار؟ كما قال ربنا –سبحانه وتعالى–: "وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ" إبراهيم:٥٠، "وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ" الأعراف:٤١، فوصُفت النار أيضًا في القرآن بأنها تغشى.

فلو أن المقصود النار أي الغاشية، النار التي تغطي على وجوه أهل الباطل الذين اختاروا الباطل في الدنيا، أو يوم القيامة ذلك الكرب العظيم الذي يغطي على كل الناس إلا أهل الإيمان، يكونون في رضا بسبب سعيهم "لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ".

وجوه أهل الباطل الذين حاربوا الدين وعذبوا المؤمنين في سورة البروج، ومكروا وكادوا لهدم الدين في سورة الطارق، وأعرضوا عن التزكي وتجنبها الأشقى في سورة الأعلى، هذه الوجوه تأتي في سورة الغاشية خاشعة ذليلة.

المتدبر في سورة الغاشية يلاحظ أن من المحاور الأساسية قضية العمل، إن الإنسان لا بد أن يعمل. في سورة الأعلى تقول لك: لا بد من تزكي، هذا التزكي لا بد له من عمل يأتي في سورة الغاشية. لذلك القضية كلها في السعي، في العمل، في البذل، في سورة الغاشية. التزكي الحقيقي هو الذي يثمر العمل.

لذلك الناس ينقسمون في سورة الغاشية على حسب أعمالهم، لا على حسب أفكارهم فقط، على حسب الأعمال التي فعلوها.

لذلك لو أردنا أن نخرج بقاعدة عامة من سورة الغاشية: الجزاء من جنس العمل.

لماذا ذُكر هذا العذاب في سورة الغاشية؟ بسبب أعمالهم في الدنيا.

لماذا ذُكر هذا النعيم في سورة الغاشية؟ بسبب أعمالهم في الدنيا.

فالناس يُنعمون ويُعذَبون على حسب أعمالهم.

لذلك النعيم المذكور في سورة الغاشية والعذاب المذكور في سورة الغاشية مناسب للأعمال، لذلك قال ربنا: "عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ".

"هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ –سواء يوم القيامة، أو النار التي تغطي على وجوه الكفار– وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ".

القسم الأول: ذلك القسم الذي رفض العمل في الدنيا "وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ" يأتي خاشع، لكن ليس من عظمة الله، رفض الخشوع في الدنيا، رفض أن يسجد لله في الدنيا، فالجزاء من جنس العمل، يعاقب، يأتي يوم القيامة ذليل، يغشاه السواد على وجهه، يغطي وجهه السواد.

"وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ".

العلماء قالوا: يوم القيامة فيه أعمال؟ هل فيه أعمال يوم القيامة؟ لماذا قال ربنا: "عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ"؟

فجعل بعض أهل العلم يختار: إن عاملة ناصبة، أي: نعم، تعمل في الآخرة، تعمل الجري والهروب، وفي النار، وتُكلف بصعود الجبال في النار، وتُكلف بأعمال في النار لا على سبيل التكليف، على سبيل التعذيب، لماذا؟ لماذا يُعذَبون في النار بطلب الأعمال؟ لماذا؟ لأنهم رفضوا العمل في الدنيا.

يبقى الصنف الأول الذي رفض الأعمال، رفض الطاعات، أبى أن يطيع، كان لا يريد أن يعمل لله، مش عايز يعمل، فيأتي يوم القيامة كما قال ربنا –سبحانه وتعالى– عن الذي استمع إلى القرآن وكاد أن يسلم في سورة المدثر، وليد، استمع إلى القرآن وكاد أن يسلم، ثم لما فكر وقدر : أنا لو أسلمت سوف أُلزَم بأعمال وطاعات، أنا أريد أن أفعل ما أشاء، "بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ" القيامة:٥، قال ربنا عنه: "سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا" المدثر:١٧، قيل الصعود: الجبل العالي في جهنم، يُرهق، يُطلب منه ويعذب ويُكلَف ويؤمَر أن يصعد الجبل في النار، حتى إذا

قارب الوصول إلى قمته يُضرَب حتى ينزل إلى قاع النار أو قاع الجبل ويؤمر بالصعود مرة أخرى، يؤمَر بالأعمال ويُكلَف بالأعمال الشاقة التي ترهقه لأنه رفض الأعمال في الدنيا، فقال ربنا: "عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ"

فاختار جمع من المفسرين أن العمل والنَصَب الاثنين في الآخرة، يؤمَر بأعمال ويكلَف بأعمال التي تؤدي إلى النصب في النار، والعياذ بالله، أو في عرصات يوم القيامة، يذهب ويستغيث بهذا، ويلجأ إلى أبيه فيعرض عنه أبوه، ويلجأ إلى صديقه، ويطلب من الشيطان في النار، ويطلب من الملائكة، ويطلب من السادة الذين اتبعهم، ويذهب ويجيء ويفر ولا ينفعه ذلك، فقالوا: "عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ" أي في النار.

قال بعضهم: عاملة في الدنيا بالشهوات والمعاصي، ناصبة في الآخرة بالذنوب والأغلال والسعير؛ لأن كل إنسان لا بد له من عمل، قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: "كلُّ الناسِ يغدو –كل الناس بتتحرك، كل الناس بتعمل، لكن على حسب الوجهة– فبائعٌ نفسَهُ فمعتقُها أو موبِقُها"[1] فيه واحد بيعمل في الطاعات وفيه واحد بيعمل بالمعاصي، فقالوا: الذي اختار العمل في المعاصي ينصب في عذاب جهنم.

"عَامِلَةٌ" أي بالمعاصي، "نَّاصِبَةٌ" أي في النار.

وقيل القول الثالث: عاملة ولكنها على غير مراد الله، قالوا: كرهبان النصارى، وأحبار اليهود الذين عبدوا الله على غير مراده، الضالين والمغضوب عليهم، الذين عبدوا الله بأهوائهم، لأن لما جاءت في آخر سورة الأعلى لما أمرنا الله –عز وجل– بالتزكي، قال بعض أهل العلم: هذا لمن حاول التزكي على غير مراد الله وعلى غير سنة النبي –صلى الله عليه وسلم–.

فقالوا في هذه الآية: نصيب لكل مبتدع أصر على بدعته وأعرض عن سنة النبي –صلى الله عليه وسلم–، فقالوا: أنه كان يعمل، كان يعمل في الدنيا، لكن على غير مراد الله، فيأتي أيضًا يُعذَّب في جهنم والعياذ بالله.

لكن اعلم أن الله –عز وجل– لا يعذب أحدًا إلا بعد أن يبين له الحق "وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا" الإسراء:١٥، وقال ربنا –سبحانه وتعالى–: "وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ" التوبة:١١٥.

لكن الإنسان اللي بيختار على هواه ويصر حينما يختار الإنسان هواه ويصر على ذلك، قال ربنا: "نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ" "وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ" النساء:١١٥، هو اللي اختار، فييسر الله له طريقًا إلى النار "نيسره للعسرى" والعياذ بالله.

"عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ" إما لأنهم عرضوا عن الطاعات، أو لأنهم عملوا بالمعاصي، أو لأنهم أطاعوا الله على غير مراد الله، كمن تقرب إلى الله بعبادة الأوثان قالوا: "مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ" الزمر:٣، هؤلاء إما أعرضوا عن العمل أو رفضوا العمل، فيعذَّبون بأعمال شاقة في الآخرة وفي النار والعياذ بالله.

ثم يذكر لنا ربنا –سبحانه وتعالى– مشهد من مشاهد العذاب في النار، كان متوقع إن المشهد اللي يأتي مشهد المقامع اللي من حديد، مشهد سجن يُحبس فيه ويُعذَّب، مشهد ملائكة العذاب تحيط به وتعذبه بأصناف من عذاب.

العجيب أن المشهد اللي انتقي لنا في سورة الغاشية ليدل على مدى المشقة والعناء والنصب الذي يعيشه أهل النار والعياذ بالله، مشهد الطعام والشراب، اللي هو أصلًا مشهد الرفاهية عند أي إنسان، اللي هو لحظات الراحة عند الإنسان الذي يعمل في الدنيا، ينتظر أوقات الطعام والشراب حتى يستريح. هؤلاء الذين كانوا في الدنيا يشربون الخمر ويستهزئون بأهل الإيمان ويضحكون منهم ويمكثون في جلسات

[1] صحيح مسلم

يمكرون بأهل الإيمان في الطعام والشراب، انتقلوا الآن في النار والعياذ بالله إلى مشهد الطعام والشراب الذي فيه كل المشقة وكل التعب والنصب، حتى الطعام والشراب فيه تعب ونصب ومشقة، فما بالك ببقية حياته في النار؟!

"وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ"

"تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ" لم يقل لنا الله –عز وجل–: يشرب، لا، يُسقى، غصبًا عنه، يتجرع. يعني هو يمر بلحظات العطش، شدة لهيب النار والعياذ بالله، فيريد أن يشرب، مشهد الشرب في النار أصلًا رحلة، يعني اللي يجمع من القرآن مشاهد الشرب في النار –والعياذ بالله– رحلة "يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ" الرحمن:٤٤، وكأنه بيذهب إلى مكان معين للشراب، الحميم الآن: الماء الحار المغلي الذي وصل إلى أعلى درجة حرارة، ليس بمعيار الدنيا. ده الأول لما بيروح.

أراد أن يشرب، مجرد بس إنه يريد يشرب، تشوي الوجوه، يشرب ماء كالمهل يشوي الوجوه، يعني هو لسه مشربش، قبل الشرب، مجرد قبل الشرب، الدخان الخارج من كوب الحميم –والعياذ بالله– يجعل لحم الوجه يُشوى ويتساقط، فإذا شرب يُسقى غصبًا عنه.

آية "يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ" ده قبل الشراب، رحلة إلى الشرب، "يَشْوِي الْوُجُوهَ" قبل الشرب، سورة الكهف:٢٩، سورة الغاشية لحظات الشرب، إنه بيُسقى غصبًا عنه، بعد الشرب، سورة محمد:١٥ "وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ".

تخيل رحلة متكاملة لمجرد الشرب، في حين إن في المشهد المقابل في نفس السورة "سورة الغاشية" "وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ" "فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ"، الماء جنبه في كل مكان بغير أخاديد والأكواب موضوعة إذا أراد أن يشرب في أي وقت، والنمارق المصفوفة والزرابي المبثوثة، فمشهد الشرب مقابل لمشهد الشرب عند أهل الجنة.

ثم مشهد الطعام "لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ * لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ" لا بيغذي ولا حتى بيسد الجوع.

قيل الضريع اللي هو الشبرق اليابس، نبات من الشوك إذا يبس أصبح سمًا قاتلًا للحيوانات في الصحراء، تعرض عنه البهائم وتعرض عنه الإبل من خطورته ومن طعمه، هو يُجبر أن يأكل هذا الضريع في جهنم والعياذ بالله.

وقيل: الطعام الذي يجعل الإنسان يتضرع ويجأر، لذلك قال بعض أهل العلم: يأتي مرة الغسلين، ويأتي مرة الزقوم، ويأتي مرة الضريع، قالوا: هذا على حسب أعمالهم، كلما ازداد الإنسان فجورًا في الدنيا ازداد الطعام سوءً والعياذ بالله وعذابًا يوم القيامة. نسأل الله السلامة.

"لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ * لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ" مشهد الطعام والشراب.

ثم ننتقل إلى الوجوه الناعمة، التي تعبت في الدنيا، التي بذلت، كان ينزل منها العرق لنصرة الدين، لقيام الليل، لقضاء حوائج المسلمين، كانوا يعملون في الدنيا، هذه الوجوه الناعمة لسعيها، لأنها كانت تسعى، لم ترفض العمل، بل كانت تعمل، وعلى مراد الله وعلى سنة رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، فاستحقوا النعيم، فالجزاء من جنس العمل، كما أتعبوا أنفسهم وأجهدوا أقدامهم وأفكارهم لنصرة الدين ولخدمة المسلمين هؤلاء يأتون يوم القيامة في النعيم.

"وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ" بعيد عن الغاشية، بعيد عن النار، بعيد عن كربات يوم القيامة، هم في موقف آخر "لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ" حينما ينظر في صحيفته يرضى، يكون مبسوط إنه وُفق لهذه الأعمال، يأتي يوم القيامة سعيد "هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ" الحاقة:١٩، فرحان، تعب، الإنسان لما بيتعب وتيجي الشهادة تطلع، فرحان إنه تعب، أنه بذل، أنه سعى، كان يبذل وغيره يلعب، فجاء يوم الفرح "قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ" المؤمنون:١، جاء يوم الفلاح "لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ".

"فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ" علو الجنة مناسبة لسورة الأعلى، هؤلاء الذين اعتلوا عن الشهوات وزكوا أنفسهم، الآن أصبحوا في جنة عالية، ابتعدوا عن شهوات الدنيا، "فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ" لما ابتعدوا عن اللغو وابتعدوا عن الباطل في الدنيا "لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً" ابتعدوا عن أي شيء يستثير الشهوات، ابتعدوا عن الكلام الباطل، ابتعدوا عن الشبهات، أعرضوا عن كل ذلك، فلما أعرضوا عن هذا في الدنيا فالجزاء من جنس العمل "لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً".

"فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ" يستريح، هو تعب في الدنيا، فيأتي ليستريح "فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ" الكوب منتظر وموجود محطوط، وقيل موضوعة يعني مقدرة مظبوطة على المذاق الذي يريد، لكن المعنى الأول الأشهر: أنها بجواره.

والعين الجارية قيل: بغير أخدود، يعني يمسكها الله، المياه تبقى ماشية أدامك كده أنهار بغير أخاديد في الجنة، يعني مش تحت الأرض، لا، تسير أمامك ظاهرة، تخيل مشهد الإنسان يمسك بالكوب ويأخذ من النهر ثم يشرب، في لحظة متعة وسعادة. عكس مشهد الشرب الأول والعياذ بالله. "فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ"

وبعدين عايز يقعد مع أصحابه، الصحبة اللي كان متمسك بها في الدنيا، الصحبة الذين بذلوا أنفسهم لنصرة الدين أو لقضاء حوائج المسلمين أو لعبادة الله في قيام الليل، الصحبة عايز يقعد معاهم؛ "وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ" جنب بعضها، النمارق: الوسائد، الوسادة، يتكئ على الوسادة.

قيل إنه بيجلس على واحدة ويتكئ على الأخرى، وجنب بعض، معمول لهم زي قعدة عربي كده مع بعض، مجلس، ومصفوفة: إن فيه أكثر من مكان، هذه لحظات اللقاء في الجنة. من متع الجنة لحظات اللقاء، كما كانت من متع الدنيا، لحظات لقاء الصحبة الصالحة، ها هي الآن المتعة في لحظات لقاء أهل الجنة.

"النمارق المصفوفة" و "الزرابي المبثوثة" البُسُط الجميلة الفُرُش، السجاد بكل الأنواع مفروش، سواء رقيق أو سميك، مبثوثة. شوف مشهد الرفاهية والانتشار والفسحة والسعة والصحبة واللقاء والطعام والشراب، مشهد مقابل تمامًا للمشهد الأول – والعياذ بالله.

لماذا؟ ما سبب الفارق؟ الوجهة المختلفة؛ السعي والعمل هو الذي يقرر بتقدير من الملك –سبحانه وتعالى – مصير الإنسان. فالإنسان يُنعم أو يُعذَّب على حسب أعماله بمشيئة الرب –سبحانه وتعالى–.

"لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ" نسأل الله –عز وجل– أن نكون من هذه الوجوه الناعمة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمدٍ –صلى الله عليه وسلم–.

هذه السورة العظيمة التي بدأت بسؤال تجعل الإنسان يقف مع نفسه، هل سمعت عن يوم القيامة؟ هل سمعت عن تفاصيل يوم القيامة؟ هل سمعت عن النار؟ هل سمعت عن التفاصيل التي تحدث داخل النار؟

إن لم تسمع فهذه مصيبة.

لا بد أن يكرر الإنسان على سمعه أحاديث الدار الآخرة، لا بد أن يعايش تفاصيل الدار الآخرة؛ لأن الدار الآخرة الذي يعرض عن سماعها هو الذي يؤثر الحياة الدنيا كما في آخر سورة الأعلى، السورة التي قبلها "بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ" الأعلى١٦:١٧، فلتسمع عن هذه الآخرة.

سورة الغاشية من اسمها، إن فيه شيء بيغطي، فكأن فيه غشاوة كانت على أبصار هؤلاء في الدنيا، فيه غشاوة، لذلك لما قال ربنا "وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ" البقرة:٧، كما قال ربنا –سبحانه وتعالى– إن فيه واحد على بصره غشاوة وفيه إنسان هو اللي بيضع هذه الغشاوة

"وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا" نوح:٧، قوم نوح لما كان حد يكلمهم هو اللي بيضع هذه الغشاوة، فتأتي هذه السورة لترفع هذه الغشاوة، وتقول له: "أَفَلَا يَنظُرُونَ" ارفع هذا الغشاء، لقد كانت أعينهم في غطاء. لقد كنت في غفلة.

تأتي السورة لتنزع الغطاء، وتنزع الغفلة، تنزع الستار، وتنزع الغشاوة، وتأمرك بالنظر.

تخيل إنت عمال تقرأ في السورة، بمجرد ما بدأت السورة أنت دخلت في تفاصيل الدار الآخرة "هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ" وفجأة تسمع عن الوجوه الخاشعة الذليلة التي تعمل في النار وتنصب وتتعب وتُسقى وتأكل ما لا ينفعها وتعذب به، ثم انتقلت إلى مشهد في الجنة، ثم عادت بك السورة فجأة إلى الدنيا وقالت "أَفَلَا يَنظُرُونَ" ما زال الأمر متاحًا، ارفع الغشاوة عن طريق النظر في خلق الله، عن طريق التأمل في هذه المخلوقات، كيف جاءت هذه المخلوقات.

"أَفَلَا يَنظُرُونَ –أقرب شيء إلى العرب في هذه اللحظة هي الإبل التي يركبها– إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ" من الذي أعطاها كل هذه الإمكانيات، واختار لها الصحراء، وجعل لها أجهزة مناسبة للعيش في هذا المكان؟

مش عايشة في الغابة، من الذي أعطاها القدرة؟ سواء القدم أو في البطون أو طريقة الأكل والشرب، من الذي أعطاها كل هذا وجعلها تعيش في الصحراء؟ الذي خلق الصحراء هو الذي خلق الإبل، وقدَّر أن هذا الحيوان يعيش في هذا المكان. من الذي رتب وكيف؟

"أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ" من الذي جعل السماء لا تسقط والكواكب لا تصطك، ووضع هذه القوانين بدقة لتضبط وتعاير هذه الأمور والكواكب والنجوم؟

"وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ –لا تسقط على الأرض، وغيابها يؤدي إلى الزلازل– كَيْفَ نُصِبَتْ" وهذه الأرض بالرغم من كرويتها وبالرغم من الأخاديد والجبال، من الذي جعلها لنا مسطحة نستطيع السير فيها؟ "وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ" دورك معهم أن تذكرهم بهذه الفطرة، أن يتأملوا في الخلق.

"فَذَكِّرْ" حاول رفع هذه الغشاوة، حاول إنقاذ هؤلاء من النار قبل أن يصلوا إلى الغاشية، إلى جهنم والعياذ بالله. "فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ" كل دورك معهم التذكير "لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ" لن تستطيع أن تجبر أحد على الإيمان، دورك معهم أن تستثير الفطرة والتأمل والتفكر حتى يغيروا الوجهة للعمل للطاعة حتى يأتوا يوم القيامة "وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ".

"فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ"

"إِلَّا" أي: ولكن، "إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ" لكن –استثناء منقطع– لكن من تولى وكفر، وكأن الله –عز وجل– يقول لمحمد –صلى الله عليه وسلم–: ذرني والمكذبين، هذا الله –عز وجل – متكفل بعقابه وعذابه.

"فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ" لأنه أعرض عن كل هذه الآيات، كفر بما لا يحصى من النعم، أعرض عما لا يُحصى من الآيات، فاستحق العذاب الأكبر، ولا تتعجل ذلك، لو رأيت أن أحدًا منهم مات في نعيمٍ في الدنيا، فاعلم "إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ" الله –عز وجل– لا يعجل بعجلة أحد، قد ترى أحد من هؤلاء المبطلين المعرضين الذين أعرضوا عن شرع الله –عز وجل– تراه في نظرك يعيش منعمًا في الدنيا، يعيش في مجالس الخمر، يعيش يعيث في الأرض فسادًا، ثم يموت هكذا بدون عذاب ينزل عليه، فتتوقع أنه فلت من العذاب، فيقول الله: "إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم".

الله –عز وجل– متكفل بحسابه، الذي ينسى الدار الآخرة قد يصاب باليأس، قد يصاب بالإحباط، لا يتزكى، لا ينطلق في الأعمال، تأتي هذه السورة لترفع الغشاوة من على أعين الناس، لترفع إيثار الحياة الدنيا، تأتي هذه السورة بهزة عنيفة لتأمرنا أن نتذكر الدار الآخرة ونجعل الدار الآخرة حديثًا بيننا.

"هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ" من الشيء المتداول، الحدث يصبح متداولًا، يصبح حديثًا بين الناس، هكذا الدار الآخرة لا بد أن تصبح حديثًا متداولًا بيننا حتى لا ننسى الدار الآخرة.

أسأل الله –عز وجل– أن يرزقني وإياكم حسن الخاتمة.

اللهم ارزقنا حسن الخاتمة، اللهم وفقنا لعمل صالح واقبضنا عليه، اللهم وفقنا لعمل صالح واقبضنا عليه، اللهم إنا نسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللهم واجعلنا هداة مهتدين لا ضالين ولا مضلين، اللهم اهدنا واهد بنا واجعلنا سببًا لمن اهتدى، اللهم قنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن، اللهم جنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن، اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.